تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07- 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

سمات العمارة الدينية في مدافن الفترة العثمانية بمدينة شرشال

Features of religious architecture in Tombs of the Ottoman period in the city of Cherchell

زوليخة تكروشين[1] *

[1] المركز الوطني للبحث في علم الآثار، تيبازة، الجزائر، zoulikha42@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 15/02/2023، **تاريخ القبول:** 02/10/2023، **تاريخ النشر:** 2023/10/30

ملخص:

حظيت مدينة شرشال الإسلامية بمعالم جنائزية، احتضنت رفات علمائها وأوليائها الصالحين، حيث بلغ اهتمام واحترام أهل المنطقة والمناطق المجاورة لهم إلى حدّ كبير. هي معالم منفردة أو مركبة، بسيطة أو فاخرة، حسب درجة مكانة أصحابها العلمية والدينية والاجتماعية. أنواع متعددة، وأنماط كثُر بناؤها في الفترة الإسلامية. رغم النهي عن بنائها في الفترات الأولى من ظهور الدين الإسلامي، إلا أنه بمرور الزمن وخاصة بعد أن توسعت رقعة الإسلام، كان من ضمن التقاليد التي وُجدت عند أهل البلدان المفتوحة، خاصة العثمانيين، هي الاهتمام بالمدفن. فلقد اشتهر هؤلاء ببناء هذه العمائر، وأقاموا منها عددا كبيرا وأقبلوا على تغطيتها بالقباب، كما انتشر بناؤها انتشارا واسعا بالجزائر خلال الفترة العثمانية، خاصة في غرب البلاد، فكانت لا تكاد تخلو أي منطقة من مقام أو قبة ولي صالح.

لقد وقع اختيارنا على أحد المدافن المشهورة بمدينة شرشال، ألا وهو مدفن سيدي محمد الشريف لدراسته في هذه الورقة البحثية، لنبرز أهم سمات العمارة العثمانية بالجزائر، من خلال التطرق لأهم العناصر والوحدات المعمارية التي تميزه.

الكلمات المفتاحية: مدفن؛ سيدي محمد الشريف؛ عناصر معمارية؛ فترة عثمانية؛ شرشال.

Abstract:

The Islamic city of Cherchell had funeral monuments that housed the remains of its scholars and righteous saints, where the interest and respect of the people of the region and their neighboring regions reached a great extent. They are single or complex landmarks, simple or luxurious, according to the degree of their owners' academic, religious, and social standing. Various types and styles were built in abundance in the Islamic period, despite the prohibition against building them in the early periods of the emergence of the Islamic religion. However, with the passage of time, especially after Islam expanded, one of the

*زوليخة تكروشين

traditions that existed among the people of the conquered countries, especially the Ottomans, was the phenomenon of interest in cemeteries. They were famous for building these buildings, and they erected a large number of them and covered them with domes. Their construction also spread widely during the Ottoman period in Algeria.

We have chosen one of the famous shrines in the city of Cherchell, which is the shrine of Sidi Mohammed Cherif, to study in this research paper, to highlight the most important features of Ottoman architecture in Algeria, by addressing the most important architectural elements and units that distinguish it.

Keywords: Tomb; Sidi Mohammed Cherif; Architectural elements; Ottoman period; Cherchell.

Résumé :

La ville islamique de Cherchell possédait des monuments funéraires qui abritaient les restes de ses érudits et de ses saints justes, où l'intérêt et le respect des habitants de la région et de leurs régions voisines atteignaient une grande ampleur. Ce sont des monuments uniques ou complexes, simples ou luxueux, selon le degré de statut académique, religieux et social de leurs propriétaires. Différents types et styles ont été construits en abondance au cours de la période islamique, malgré l'interdiction de les construire au début de l'émergence de la religion islamique. Cependant, au fil du temps, surtout après l'expansion de l'Islam, l'une des traditions qui existaient parmi les peuples des pays conquis, en particulier chez les Ottomans, était le phénomène d'intérêt pour les cimetières. Ils étaient célèbres pour la construction de ces édifices, ils en érigèrent un grand nombre et les recouvrirent de dômes. Leur construction s'est également largement répandue pendant la période ottomane en Algérie.

On a choisi l'un des sanctuaires célèbres de la ville de Cherchell, qui est le sanctuaire de Sidi Mohammed Cherif, pour étudier dans ce document de recherche, mettre en évidence les caractéristiques les plus importantes de l'architecture ottomane en Algérie, en abordant les éléments architecturaux les plus importants et les unités qui le distinguent.

Mots-clés : Mausolée; Sidi Mohammed Cherif; éléments Architecturaux; Période ottomane; Cherchell.

مقدمة:

انتشر بناء المدافن والمقامات بشكل واسع في البلدان الإسلامية، خاصة مع توسع دائرة الفتوحات الإسلامية. حيث بدأت حركة التأثير والتأثر وتبادل الفنون والمعارف بين البلدان. من بينها ظاهرة الاهتمام ببناء المدافن والقباب، فقاموا بتشييدها والتفنن في تزيينها، ظنا منهم أنها تزيدهم قربى إلى الله عز وجل. فهي من مظاهر العمارة الدينية، التي تبلورت فيها العناصر المعمارية والفنية لتكشف لنا عن مهارة المعمار المسلم وذوقه الفني الراقي الذي وصل إليه.

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

اهتم المسلمون، وبالأخص العثمانيون، ببناء هذه العمائر وأقاموا منها عددا كبيرا، وشاع هذا التقليد بالجزائر خلال الفترة العثمانية، خاصة في الناحية الغربية من البلاد، فكانت تزداد سمعة هذه المدافن ويعلو شأنها عند الأهالي مع شهرة أصحابها وكراماتهم.

حظيت مدينة شرشال بمعالم جنائزية، احتضنت رفات علمائها وأوليائها الصالحين، حيث بلغ اهتمام واحترام أهل المنطقة والمناطق المجاورة لهم إلى حد كبير. هي معالم منفردة أو مركبة، بسيطة أو فاخرة، تقاس حسب درجة مكانة أصحابها العلمية والدينية والاجتماعية. أنواع متعددة، وأنماط كثر بناؤها في الفترة الإسلامية.

اخترنا في هذه الورقة البحثية مدفن سيدي محمد الشريف لدراسته، وإبراز أهم سِمات العمارة الدينية بالجزائر في الفترة العثمانية، من خلال التطرق لأهم العناصر والوحدات المعمارية الثرية والمتعددة التي تُميزه. وعليه، نطرح التساؤل التالي: ماهي أهم مميزات المدفن معماريا وفنيا، وهل تأثرت عمارته بالطُرُز العامة لبناء المدافن والمقامات في البلدان الإسلامية مشرقا ومغربا؟

1- موقع مدفن سيدي محمد الشريف:

يقع المَعلم بمقبرة الغبريني التي تبعد بـ 300م عن باب الدزاير لمدينة شرشال (Philibert M, 1973, p. 1). هي مقبرة خاصة تضم أيضا مقام سيدي براهم الغبريني ومجموعة من قبور أحفاد عائلة الغبريني، ولايزال يدفن بها أفراد العائلة إلى يومنا هذا. تتمتع المقبرة بموقع جميل، تُشرف من الجهة الشمالية على البحر وميناء المدينة، مما زاد من توافد عدد كبير من الزوار عليها خاصة أيام الصيف. ومن الجهة الجنوبية يقابلها متحف الفسيفساء الجديد. أما من الجهة الشرقية والغربية، فتحاذيها وحدات سكنية مختلفة لعائلة الغبريني، التي تشرف على تسييرها، وهي تتربع على مساحة تقدر بـ 976,4م^2.

تنسجم وحدات المقبرة من أضرحة وقبور وغُرَفٍ وآبار ومرافق أخرى ببعضها البعض، لتعطي الجمال البسيط والخشن في لوحة معمارية (Philibert M, 1973, p. 1)، نستحضر من خلالها الأحاسيس المتنوعة الممتزجة بين الطمأنينة والهدوء والتوازن والحكمة. فأحيانا يسودها الهدوء، حيث لا نرى أحدا إلا الوكيل الذي يقوم على إدارة هذا المُجمّع الضريحي بأمر من أحفاد سيدي براهم، وأحيانا أخرى نجد نشاطا كبيرا يعجّ في أرجاءها، ممّا يُضفي الحياة على المكان. إنهم الزوار الذين يأتون للدعاء والتبرك راجين أن يُستجاب لهم، فمنهم من ينفرد في أحد المقامين، يتلو آيات من القرآن الكريم ويترحم على المرحوم وجميع الموتى، ومنهم من يفضّل الجلوس تحت الأروقة بعد الانتهاء من الزيارة، ليستريح ويتبادل أطراف الحديث مع غيره من الزوّار. ومنهم أيضا من يستمتع بنسيم البحر ويخلو بفكره في الطبيعة الخلابة التي تمدها له زرقة وأمواج البحر، بالجلوس في الرواق الشمالي المطل على الميناء، وأحيانا أخرى نجد البعض يبقى في الرواق

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

الخارجي الرئيسي عند مدخل المقبرة، ينتظر دوره في الزيارة بسبب كثرة الزوار، خاصة أيام المناسبات الدينية، المخطط رقم (1).

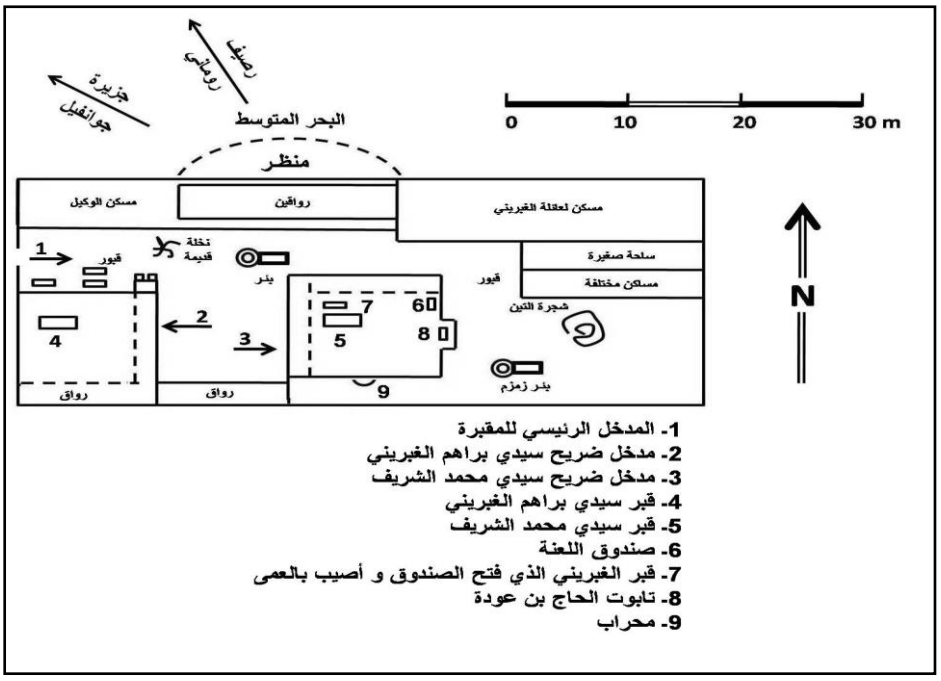

المخطط رقم (1): مقبرة الغبريني ووحداتها المعمارية سنة 1973م المصدر: مارسيل فيليبر بتصرف

2-ترجمة الولي الصالح سيدي محمد الشريف:

هو محمد الشريف الصغير، يرجع نسبه إلى جدّه سيدي محمد الشريف الذي استقر ببلاد القبائل بعد خروجه مع رفاقه، من زاوية الساقية الحمراء بالصحراء الغربية، في مهمة تبليغ الدعوة الإسلامية. ومن هؤلاء الرفاق سيدي محمد الغبريني، والد سيدي براهم المعروف باسم **"مول المقام"** والتي سميت باسمه المقبرة. كان هذا الحفيد من نسل شريف، تلقّى المعارف في بلاد القبائل، ولما كبر رغب في مقابلة سيدي براهم الغبريني بمدينة شرشال وحضور دروسه والاستفادة منها، بعد أن ذاع صيته وانتشرت سمعته وبركاته في كل مكان. فنزل بالمدينة حيث استقبله سيدي براهم بحفاوة كبيرة. وزوّجه ابنته لالّة عودة التي كانت على قدر كبير من العلم والجمال،(Trumelet C, 1892, p. 381) وبذلك تمّ جمع شمل السلالتين الشريفتين، لتكون مسيرة نشر العلم والدعوة على طريقة واحدة ألا وهي الطريقة القادرية.

لم يحظ سيدي محمد الشريف بالنسل الذي كان ينتظره رغم زواجه 20 مرة. وتقول الرواية عن حادثة إنجابه أنها من إحدى كرامات الولي الصالح سيدي محمد الصغير. إذْ أنه ذات يومٍ، قَدِمَ إلى المدينة خُدّام سيدي محمد بن عودة رفقة أسد ضخم، وهو الولي الصالح المشهور بنواحي غليزان في القرن 10هـ/16م والمعروف بترويضه للأسود، فاغتنم

سيدي محمد الشريف فرصة وجود ذلك الأسد الذي يقال عنه أنه مبارك، ليطلب بركته في الإنجاب لإحدى زوجاته، فأدخله على زوجاته الأربع حيث بدأ يدور ويُطلق الأزير والأنفاس عليهن حتى وقف عند إحداهن والمسمّاة السّمينة بنت السّمين، فازدادت أنفاسه عليها، وكان هذا دليلا على أنها هي الزوجة التي سوف تُنجب له ولدا يخلفه. وعندها، نذر سيدي محمد الشريف أنه إذا رزق بمولود ذكر سوف يهب 50 قطعة ذهبية كل سنة لزاوية سيدي محمد بن عودة بغليزان (Guin L, 1873, p. 4). لكن هذه الرواية تعتبر من الأساطير المعروفة في تلك الفترة، ودونتها كتب الأجانب من المهتمين بالتراث الجزائري بالاعتماد على الروايات المتناقلة على ألسنة الأهالي. وربما هذا راجع إلى جهلهم أو شدة تعلقهم بكرامات الأولياء وتصديقها، علما أن التداوي وإصلاح الأمور والبحث عن تفريج الكروب والسعي إلى النجاح، كان يعتمد بكثرة على زيارة قباب الأولياء في الفترتين العثمانية والاستعمارية، ونحن من هنا لا ندعم هذه المعتقدات، وإنما نسردها كونها جزء من التراث الشعبي والمعتقدي والاجتماعي الذي كان سائدا في المجتمعات الإسلامية، رغم انتشار العقيدة الصحيحة بها من طرف هؤلاء العلماء أصحاب القباب ذاتهم، لكن أتباعهم ومن أتى بعدهم عميت بصيرتهم عن الحق.

وُلد لسيدي محمد الشريف ابن سُمّي الحاج بن عودة - تبرّكا بالولي الصالح بغليزان – لكن أبدى ميوله منذ طفولته بالحروب والمعارك عكس أجداده العلماء. اشتهر في شبابه بالقوة والشجاعة وحبّ الفروسية، وحذق في استعمال السلاح الناري (البنادق)، فكسب مكانة مرموقة بين الأهالي لدرجة أنهم كانوا على استعداد لبذل روحهم في سبيل الوقوف معه ضد السلطة العثمانية، التي كانت تهاب الحاج بن عودة وترغب في التخلص منه. وكان قد حدث في إحدى المجالس أن أحد القادة الأتراك قام باستفزازه في إحدى، إلى أن هجم عليه الحاج بن عودة وقتله، فاستغل الديوان هذا الحادث وقاموا بإعدامه رغم محاولات الأهالي لافتدائه. ودُفن بمقبرة الغبريني، في قبة والده سيدي محمد الشريف. (Guin L, 1873, pp. 444-447)

3- دراسة وصفية للمدفن:

يعتبر مقام سيدي محمد الشريف من أروع نماذج العمارة الدينية في الجزائر في الفترة العثمانية، إذ يتخذ الشكل السائد للمقامات والمدافن في العام الإسلامي مشرقا ومغربا، وهو القاعة المربعة التي تعلوها قبة يتقدمها غالبا رواق مدعم بأعمدة وعقود.

تتخذ قاعة المدفن شكلا مربعا (6م×6م) يبلغ سمك جدرانها 1م، يتقدمها رواق تدعمه دعامات حديثة، تحملها عقود نصف دائرية ومغطى بقبتين صغيرتين مضلعتين. كما كان يتقدم القاعة رواق من الجهة الشمالية، إلا أنه تهدم إثر زلزال 1989م. أما الجدار الشرقي، فيظهر به قاعة ملحقة مستطيلة تعلوها قبيبة صغيرة ملساء ومنخفضة جدا.

جاءت قبة المدفن المركزية كبيرة تغطي كامل الغرفة، وهي نصف كروية ملساء ومنخفضة، تقوم على رقبة مثمنة يبلغ علوها 1,28م، وطول ضلعها 2,30م، وارتفاعها 54سم، وهي مزودة بـ 8 فتحات و4 شمسيات موزعة بالتناوب على طول محيطها لغرض الإنارة والتهوية، الصورة رقم (1). يَبرز أسفل رُكنيْها الشمالي والجنوبي بروزا على شكل برميل

مضلع، يحتمل أن يكون عبارة عن منطقة اتصال بين قاعة المدفن ورواقه الذي يتقدمه. تعلو تلك الرقبة 16 شرافة على شكل عرائس، 12 منها مسنّنة ب 3 أسنان والمتبقية مسنّنة باثنين.

أما من الداخل، فهي ترتكز على رقبة مثمنة تقوم على أربع تجويفات تتخذ شكل قبيبات مضلعة غائرة تقع تحت عقد منكسر، استعملت كمناطق للانتقال من المسقط المربع للقاعة إلى المسقط المثمن للرقبة، ثم إلى الشكل الدائري لخوذة القبة.

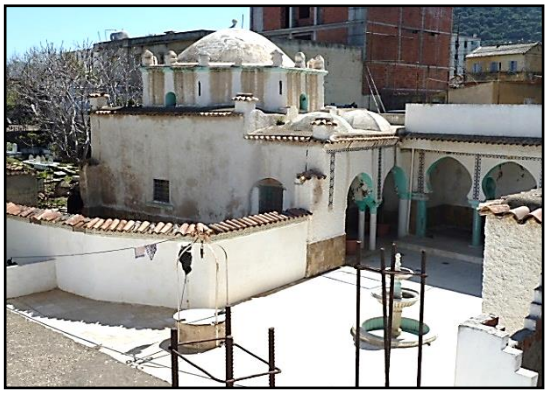

الصورة رقم (1): منظر عام للمدفن مقبرة الغبريني المصدر: زوليخة تكروشين

يُفضى إلى القاعة عن طريق مدخل له إطار مستطيل ومصراعين خشبيين (1,90م× 1,10م× 0,57م)، وإلى جهته اليسرى نافذة مسيجة بسياج حديدي (0,80م×0,70م) مسدودة من الجهة الداخلية للقاعة بشمسية، يسلم منها الزائر على صاحب القبة، وأحيانا يوضع قطع نقدية للصدقة. احتوت قاعة المدفن على محراب مجوّف في وسط جداره الجنوبي. من المحتمل أنها كانت تستعمل كمصلى لتأدية الصلوات من قبل الزوار أو في المناسبات العامة، أو كاتجاه للقبلة بغرض الدعاء. وعلى جانبي المحراب حنيتين غائرتين في الجدار تستعمل لإشعال الشموع. وتظهر القبور منتشرة في الغرفة منها قبر الحاج بن عودة ابن سيدي محمد الشريف.

أما الجدار الشرقي، فهو مفتوح على قاعة صغيرة مستطيلة، ألحقت بقاعة الضريح وهي تأخذ شكل الإيوان، يُحتمل أنها كانت مجلسا للتدريس من طرف سيدي براهم أو سيدي محمد الشريف، أو مكانا للفصل في القضايا الدينية والاجتماعية بين الناس، أو لقراءة القرآن وحفظ الكتب. تضم هذه الوحدة المعمارية الملحقة في أعلى جدارها الشرقي شمسية، وقبة مزيّنة بزخارف جصية غائرة تقوم على منطقة انتقال عبارة عن 4 عقود نصف كروية صماء.

يرتفع على قبر سيدي محمد الشريف تابوت خشبي، تعلوه قبة مخروطية ومهدا برميليا، وهو تحفة فنية في غاية الجمال تبرز فيه الزخارف الهندسية المختلفة المنفذة بمختلف التقنيات الصناعية والأساليب الزخرفية المعروفة في الفن الإسلامي. الصورة رقم (2). وسوف نوضح تفاصيل العناصر المعمارية في الجدول رقم (1).

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

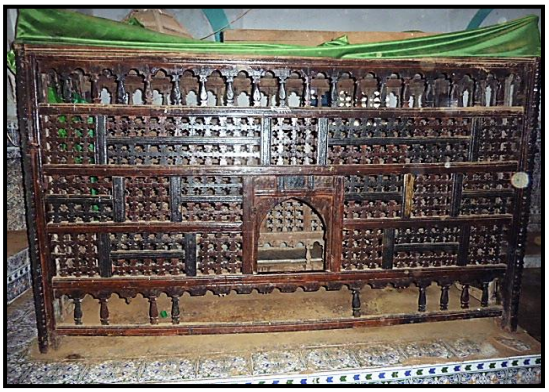

الصورة رقم (2): التابوت الخشبي المصدر: زوليخة تكروشين

	المحراب	القاعة الملحقة	الحنيات
العرض	1,14م	1,70م	0,80م
الارتفاع	2,70م	2,75م	1,20م
العمق	1,28م	2م	0,54م
الشكل	خماسي الأضلاع	مستطيل	مستطيل
نوع العقد	نصف دائري متجاوز	منكسر مشرع/ نصف دائري أصم	مستطيل
التسقيف	نصف قبة ملساء	قبة نصف كروية بزخارف جصية	منحني
التكسية	بلاطات خزفية	بلاطات خزفية	بلاطات خزفية
الشمسيات	/	1	/

الجدول رقم (1): مقاسات العناصر المعمارية المصدر: زوليخة تكروشين

4-دراسة العناصر المعمارية:

تعتبر العناصر المعمارية من المميزات الأساسية في المنشآت الإسلامية، فلا يمكن أن يشيّد أي مبنى دون وجود مجموعة منها يرتكز عليها، تكون متكاملة فيما بينها لتعطيه شكلا متناسقا. وقد وُجدت في معالم ومباني الحضارات السابقة للإسلام، ثم وظفها المسلمون في عمائرهم، واستحدثوا فيها عناصر أخرى، حسبما تقتضيه عقيدتهم وميولاتهم، فأبدعوا فيها حتى صارت تؤدي دورا زخرفيا إضافة إلى دورها الأساسي البنائي، خاصة في العصر الفاطمي والمملوكي والعثماني، الذي انتشر فيها تشييد المباني والعمائر، والتي لا تزال شاهدة على فنّهم المعماري ليومنا. ولقد تميز مدفن

سيدي محمد الشريف بتنوع عناصره، التي اتسمت بقيمتها المعمارية والفنية الكبيرة، والتي تفتح الآفاق للباحثين لدراستها.

1.4. المدخل:

تعد المداخل أول ما يتقدم العناصر الأساسية للعمارة الإسلامية (معزوز عبد الحق، 2014م، صفحة 81). فهي تؤدي دورا هاما في تكوين واجهات العمائر الأثرية الإسلامية. ويعتمد عدد المداخل وضخامتها وسِعتها على ضخامة وسِعة المبنى وموقعه. (بن بلة خيرة، 2007 ـ 2008م، صفحة 169) وعادة ما يُسد المدخل بمصراع أو مصراعين، إما خشبيا أو معدنيا، وقد يكون بسيطا أو مزخرفا (وزيري يحي، 1999م، صفحة 11). وقد جاء مدخل المقام من النوع البسيط، ذي مصراعين يُقفلان بقفل حديدي، له إطار مستطيل الشكل. أما العتبة، فهي مرتفعة قليلا عن مستوى أرضية الغرفة. تتكون كل دفة من دفتي الباب من لوحتين متلاصقتين طوليا، يُزين حافة الدفة اليسرى شريط زخرفي طولي بارز، قوام زخارفه عناصر نباتية تمثل شكل سنبلة متكررة، وهي من الزخارف المحلية المعروفة في الجزائر. ويبدو على هذا النوع أنه نادر في عمارة الأبواب بالجزائر في الفترة العثمانية، ويرجح أنه وصل إلى المدفن عن طريق الهبات من طرف أتباع الولي الصالح أو أهل الخير. أما عن ساكف المدخل، فهو يوازي العتبة من الجهة العليا، الصورة رقم (3).

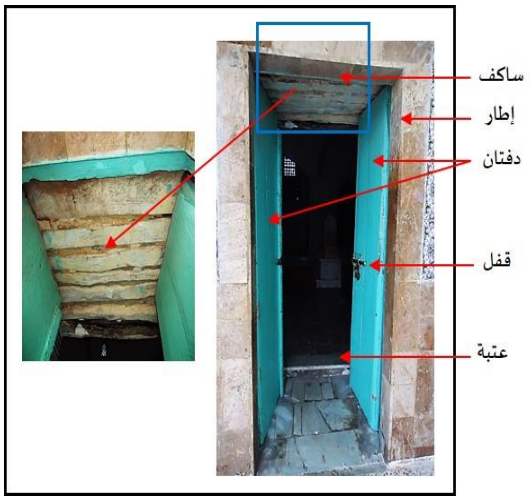

الصورة رقم (3): مدخل المدفن المصدر: زوليخة تكروشين

2.4. النو افذ والشمسيات:

عرفت العمارة الإسلامية أشكالا مختلفة من النوافذ، منها المستطيلة والمربعة والدائرية وغيرها. وعادة ما كانت النوافذ المستطيلة ذات عقود مختلفة مما يعطي للعمارة الإسلامية شكلا جميلا، يكسر الملل الناتج عن رؤية مساحات

رأسية وعرضية كبيرة مصمتة (رزق محمد عاصم، 2000م، صفحة 314). وكانت النوافذ بسيطة، تطل الكبيرة منها على الصحن الداخلي للعمائر لتزويد المباني بالإضاءة والتهوية اللازمة لها، بينما الصغيرة تطل على الشوارع والطرقات وتكون ضيقة من الخارج ومرتفعة، حتى لا تكون سببا في كسر حرمة من بالداخل، وحتى تخفف كمية الإضاءة ومنع أشعة الشمس المباشرة من الدخول إلى المبنى (وزيري يحي، 1999م، صفحة 25).

وكان المعماريون المسلمون على مرّ العصور، يولون أهمية كبيرة لإضاءة المباني الدينية من حيث كمية الضوء التي تدخلها وكيفية دخولها. (بن سويسي محمد، د ت، صفحة 253) حيث يزوّدون المباني بشمسيات تضفي عليها تلاعبا فنّيا في حركة الظل والضوء، وذلك باستغلال أشعة الشمس التي تضيء القاعة، والتي تتخلل التخريمات الهندسية المختلفة المنفذة على تلك الشمسيات.

وعلى هذا النحو فتحت في المدفن نافذة واحدة، جاءت قضبان شباكها عمودية وأفقية متلاحمة فيما بينها، مزوّدة من الجهة الداخلية بشمسية. كما وُزعت شمسيات أخرى في أماكن متعددة، تحمل تخريمات على شكل تجميعات، الصورة رقم (4).

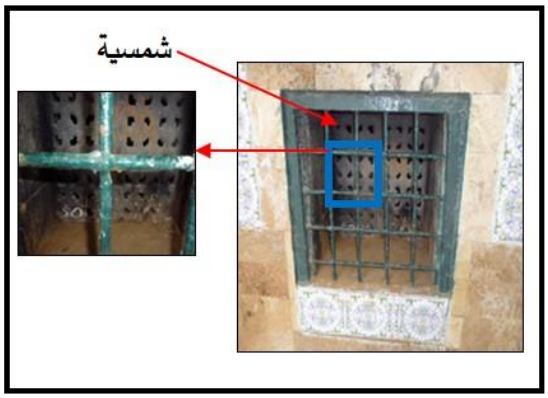

الصورة رقم (4): نافذة المدفن المصدر: زوليخة تكروشين

وهناك نوع آخر من الشمسيات، جاءت محيطة ومتوزعة بتناسق وانسجام على رقبة القبة المركزية للمدفن، تُبرز قدرة تحكم الفنان المسلم في تقنية توزيع حركة الضوء وفق حسابات دقيقة. وهي على نموذجين، الأول عبارة عن أربع شمسيات معقودة بعقد نصف دائري، يتوسطها مستطيل (0,58م×0,44م) يعلوه عقد منكسر يضم تخريمات هندسية متشابكة، وهي مستوية مع جدار الرقبة من الداخل وغائرة من الخارج. أما الثاني، فيتمثل في ثماني شمسيات، تتخذ شكلا مربعا غائرا في جدار الرقبة من الداخل، تضم في وسطها مربعا به تخريمات هندسية الشكل أيضا، لكن يبدو أن هذه الأخيرة كانت من قبل عبارة عن فتحات خالية من التخريمات التي استحدثت لاحقا. ومن الخارج فهي عبارة عن

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

فتحات مستطيلة الشكل وضيقة (0,40م×0,07م)، متوضّعة طوليا في كل ركن من أركان أضلاع الرقبة، مما يسمح بمرور كمية قليلة من الضوء إلى داخل الغرفة.

إن صِغَرَ حجم قاعة مدفن سيدي محمد الشريف وقلة النوافذ بها، يفسر لنا سبب وجود هذه الشمسيات والفتحات بكثرة في الرقبة والجدران، فهي تحتاج لقدر معين من التهوية والإنارة. إلى جانب تفنن المعمار المسلم في إعطاء هذا المقام نوعا من الرفاهية والفخامة، على حسب مساحة المبنى وتوفر المواد البنائية. فضلا عن أن تلك الفتحات التي تتسع من الداخل وتضيق من الخارج، لها شَبَه واضح بالمزاغل المستعملة في العمارة الحربية، والتي تُطلق من خلالها السهام دون أن ينكشف المحارب وراءها. ولهذا، فإن وجودها بهذه الهيئة في رقبة قبة المدفن، لَيَقودنا إلى احتمالية اعتبار هذا المكان رباطا، كان يرابط فيه الأهالي أو المحاربون لغرض ضرب العدو من خلال تلك الفتحات الضيقة، أو للحماية من الأعداء والاختباء فيه، خصوصا أن العثمانيون كانوا يحترمون مقامات الأولياء الصالحين ويقدسونها، فكانوا لا يتجرؤون على اقتحامها وقتل من يحتمي داخلها، الصورة رقم (5).

الصورة رقم (5): شمسيات وفتحات رقبة القبة المركزية المصدر: زوليخة تكروشين

3.4. المحراب:

أُطلق هذ المصطلح على حجرة أو صومعة، يؤدي فيها المتعبد شعائر الصلاة والتقرب إلى الله تعالى. ومن ثَم، اتُخذت المحاريب بالنسبة للمساجد كعلامة تعيّن اتجاه أقدس مكان عند المسلمين وهو بيت الله الحرام، وقبلة يتجهون إليها في صلاتهم سواء أكانت هذه العلامة على هيئة علامة مسطحة أو غائرة أو بارزة (شافعي فريد، 1994م، صفحة 611).

جاء محراب مدفن سيدي محمد الشريف من النوع الغائر له مسقط خماسي الأضلاع، يتكون من قسمين، القسم العلوي تميز بفتحة ذات شكل عقد حدوي وتجويفة نصف كروية، وطاقية مقعرة ملساء يحيط بها إطار خارجي

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

مربع الشكل. أما القسم السفلي، فهو مكسو ببلاطات خزفية حديثة. ومما يلاحظ انعدام العمودين على جانبيه كما هو معهود في محاريب العمارة الإسلامية، ويحتمل أن هذا راجع إلى الترميمات التي جرت على المبنى سنة 1996م. وقد قمنا بإعادة تصور العمودين على جانبي المحراب في الشكل التابع للصورة رقم (6).

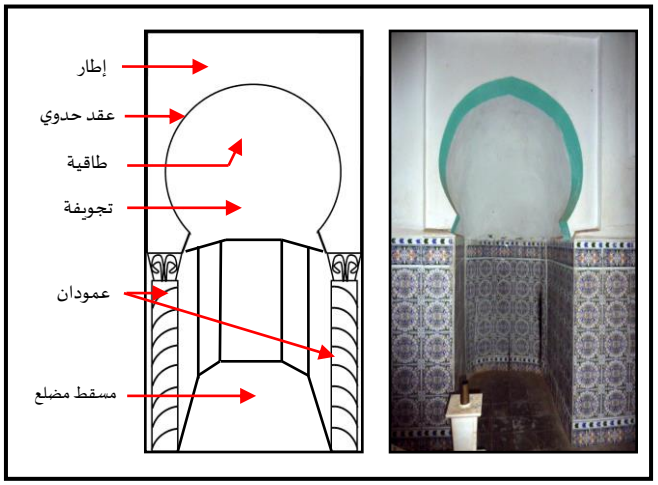

الصورة رقم (6): محراب قاعة المدفن المصدر: زوليخة تكروشين

إن وجود محراب في هذا المبنى يُحتمل استعماله كمصلى، وربما كان من قبلُ مكان اعتكاف الولي الصالح. لكن تجدر الإشارة إلى أن اتجاه القبلة مُعيّن في الجدار الجنوبي، وليس في الجدار الشرقي الذي يعتبر الاتجاه الحقيقي للقبلة، فربما أخطأ المعمار وقتها في الاتجاه الصحيح للقبلة لعدم معرفته بالمعايير المناسبة لذلك، أو أنه اتبع مساجد العهود الأولى التي كانت تعتمد جهة الجنوب كاتجاه للقبلة.

4.4. العقود:

يُعتبر العقد عنصرا أساسيا في العمارة الإسلامية، فقد استُخدم لأغراض معمارية وجمالية في نفس الوقت، فهو حامل للسقوف وموزع للثقل الرأسي إلى قوى جانبية وتفريغها من ضغطها، وهذا ما يخفف من قوة الشدّ التي تتعرض لها المادة البنائية في الفتحات (بن سويسي محمد، د ت، صفحة 250). كما أن عقود الأروقة تسمح بمرور الضوء والهواء إلى المباني بفضل فتحاتها، بالإضافة إلى أنها تعتبر كاسرًا للرتابة التي تتسبب فيها عادة الجدران ومختلف الواجهات المسطحة، والتي تترك الملل في نفس الناظر (معزوز عبد الحق، 2014م، صفحة 110). وقد تمّ استخدام مختلف العقود في مدفن سيدي محمد الشريف وهي كالآتي:

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

4.4.1. العقد نصف الدائري: استعمل في الرواق الذي يتقدم المدفن، لكنه جاء مشرع البطن بنسبة قليلة، حيث يظهر عدم الإتقان في شكله. كما نجده أصما، يدعم أضلاع قبة القاعة الملحقة بالمدفن، وفي نفس الوقت يُؤدي دورا تزيينيًا، جاءت حوافه بارزة عن مستوى الجدار.

4.4.2. العقد الحدوي: جاء العقد الحدوي في فتحة محراب المقام، وهو من النوع الذي يتميّز بانكسار ضئيل في قمته.

4.4.3. العقد المنكسر: وُجد هذا النوع بمناطق الانتقال التي تحمل القبة المركزية للمقام، وكذا فتحة القاعة الملحقة على شكل الإيوان، الصورة رقم (7).

الصورة رقم (07): العقد المنكسر المصدر: زوليخة تكروشين

4.4.5. العقد المستطيل أو الإهليليجي: يتراوح شكل هذا العقد بين استقامة نصف المستطيل، وبين شكل البيضة المفرطح أي العريض، ويسمى أيضا بالعقد الإهليليجي (عقاب محمد الطيب، د ت، صفحة 138). وقد استُخدِم في الحنيتين الغائرتين على جانبي المحراب في الجدار الجنوبي للمدفن، الصورة رقم (8).

الصورة رقم (8): العقد المستطيل المصدر: زوليخة تكروشين

تافزا، مجلة الدراسات التاريخية والاثريّة المجلّد: 03 العدد: 03 ص ص: 07 - 22
ISSN : 2773-3335 EISSN : 2800-1761

5.4.القباب:

كان دور القبة معماريا يتمثل في التغطية وطرد القوة الحرارية، لكونها لا تتعرض لأشعة الشمس كاملة في وقت واحد عكس السطح المستوي. وأن شكلها يسمح للجزء المظلّل بمدّ حركة الهواء المنعشة على الأجزاء الداخلية، وكذلك الرغبة في الحصول على عدد من التكوينات المعمارية بقصد قطع الملل عن الناظرين (عقاب محمد الطيب، د ت، صفحة 146). لكن تَصوّر السماء بأنها قبة تدعمه بعض التفسيرات الخاصة بالآيات القرآنية، والتي يعطي استخدامها في العمارة الإسلامية بُعدًا روحيا أيضا. فهي ترمز إلى السماء وتعتبر صورة مصغّرة لِمَا كان يراه العربي في صحرائه من اتساع الأفق واستدارة السماء من فوقه (وزيري يحي، 1999م، صفحة 79).

يحتوي المقام على أربع قباب، اثنتان منها تغطي سقف الرواق الذي يتقدمه، وهي صغيرة الحجم ومثمنة الأضلاع، تقوم على حنايا ركنية دون رقبة وهي خالية من الزخارف. والقبة الثالثة التي تعلو القاعة الملحقة، جاءت نصف كروية ملساء ومنخفضة جدا ومفلطحة من الخارج، ومن الداخل تُزيّنها زخارف جصية، وهي تقوم على حنايا ركنية على شكل عقود صماء. أما القبة الرابعة وهي الأكبر حجما وأجمل شكلا، هي القبة المركزية التي تستحوذ على كامل قاعة المدفن. جاءت نصف كروية منخفضة وتعلوها كرية جصية. تتربع خوذتها الملساء على رقبة مثمنة عالية ومزينة بفتحات وشمسيات. ولأن القاعة تحتوي على قباب أخرى صغيرة، جعل المعمار رقبة القبة المركزية أكثر ارتفاعا من خوذتها، لتتناسق مع باقي القباب وتبرز في وسطها. وقد كانت بيوت الصلاة في مساجد العصر العثماني، تغطى في معظم الأحيان بقبة رئيسية تحيط بها قباب صغيرة أو أنصاف قباب، وهو أسلوب يغلب عليه الظن أنه من أصل سلجوقي (القرن 8هـ/14م) (رزق محمد عاصم، 2000م، صفحة 231).

ارتكزت هذه القبة على مناطق انتقال في الأركان الأربعة لمسقطها المربع، حيث اتخذت شكل قبيبة صغيرة خماسية الأضلاع غائرة في كل ركن، ويتقدمها عقد منكسر ليقطع أركان المربع، فيصبح الشكل مثمنا ومهيّئا للتلاحم مع مسقط خوذة القبة. الصورة رقم (9). وقد اهتم المعمار المسلم بالرقبة اهتماما كبيرا، حيث جعل سمك جدارها أقل من سمك جدران القاعة لتكون أكثر جمالا. كما ارتبطت عقود مراكز الانتقال مع فتحات الرقبة ارتباطا وثيقا، فعندما تكون هذه المناطق عبارة عن حنية ركنية كبيرة معقودة بعقد منكسر أو مدبب، تأتي عقود الشمسيات في الرقبة من نفس النوع، وهذا الأسلوب عُرف في العمارة الإسلامية (رزق محمد عاصم، 2000م، صفحة 226،228). كما ارتبطت هذه الشمسيات أيضا بارتفاع منطقة الانتقال، فإن كانت قصيرة استعملت بأشكال بسيطة وإن كانت مرتفعة استعملت بأشكال مركبة ومتنوعة لتبرز فخامتها (إسماعيل الحداد محمد حمزة، 1413هـ/1993م، صفحة 132) وهذا ما نلاحظه على رقبة القبة، الصورة رقم (5) أعلاه.

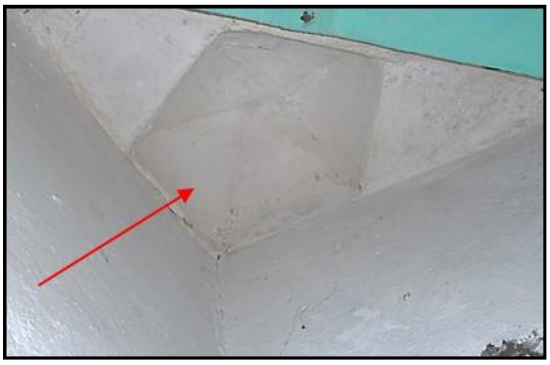

الصورة رقم (9): مناطق الانتقال المصدر: زوليخة تكروشين

6.4.الشُرّافات:

هي وحدات زخرفية توّجت بها واجهات المباني، وهي ذات أشكال هندسية مسننة أو نباتية مورقة. وكانت هذه الأخيرة الأكثر شيوعا واستخداما في العمائر الإسلامية، وكان أقدم مثال عنها في العمارة المملوكية. وتطورت أشكالها لتنتقل من العمارة الحربية إلى العمارة المدنية لتسوية أعلى المباني وتزيينه، فصارت عنصرا زخرفيا متوِّجا للواجهات البنائية أو الجصية أو الخشبية (رزق محمد عاصم، 2000م، صفحة 162). وقد تكون أسنانها صغيرة ومتعددة وتُشَكِّلُ على هيئة زهرات الليلق أو اللوتس أو على شكل مثلثات، لكن العبرة في تراصها وترتيبها على نسق واحد بطول واجهات المبنى (مؤنس حسين، 1401هـ/ 1981م، صفحة 127). كما يطلِق عليها العامة تسمية العرائس، لأنها في بعض الأحيان تشبه أشكالا آدمية تجريدية تتلاصق أيديها وأرجلها (وزيري يحي، 1999م، صفحة 127). لقد جاءت الشرافات على طول رقبة القبة المركزية للمدفن، على شكل هندسي بسيط مدبب الرأس، وهي صغيرة ورشيقة تشبه العرائس لكنها متباعدة فيما بينها، أسنانها تتعرج نحو الأعلى مكونة أشكال هندسية مشطوفة الزوايا، يتوافق شكلها مع الشكل العام للمبنى، الصورة رقم (10).

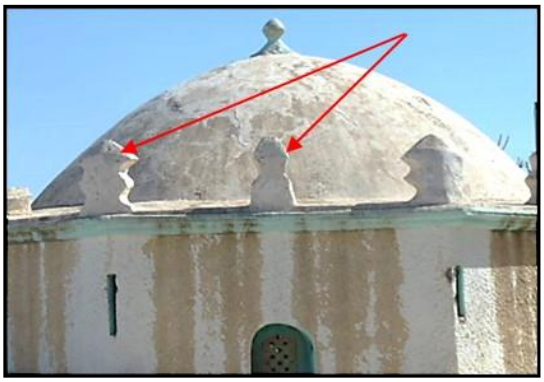

الصورة رقم (10): الشرافات المصدر: زوليخة تكروشين

تميزت العناصر المعمارية التي زخر بها المقام بالغنى والتنوع، هذا ما يدل على أنه بُني على أساس قاعة صلاة بها كل العناصر الأساسية لأداء هذه العبادة كالمحراب. أو مدرسة للتدريس على أساس وجود القاعة الملحقة على شكل إيوان. أو كرباط استعمل للتحصن ضد العدو، وهذا حسب شكل فتحات رقبة القبة وكذا شرافاتها التي توحي على أن المبنى كان يرابط به الناس أو الجنود قصد الحماية من العدو.

خاتمة:

نستنتج من خلال هذه الدراسة، أن مدفن سيدي محمد الشريف بمدينة شرشال يعود إلى الفترة العثمانية، وأن تخطيطه لم يخرج عن النمط المعروف في المدافن الإسلامية سواء في المشرق أو في المغرب، وهو قاعة مربعة الشكل تعلوها قبة، تضم مجموعة من العناصر المعمارية التي تميزت بها العمارة الإسلامية. فقد جاءت هذه العناصر ثرية ومتنوعة تؤدي أغراضا متنوعة معمارية وتزيينية، بالإضافة إلى وجود الأروقة التي تتقدم المدفن.

احتوى المبنى على أربع قباب، ثلاثة منها صغيرة وقبة مركزية، وجاءت كل القباب متناسقة في الشكل، وهذا معروف في العمارة العثمانية. كما زُوّد المبنى بشمسيات تضفي على رقبة القبة طابعا زخرفيا، وفتحات يُفترض أن دورها كان دفاعيا إضافة على دورها الجمالي والمعماري. جاءت العقود في هذا المدفن متنوعة، منها نصف دائرية وحدوية ومنكسرة وإهليليجية. احتوى المَعلم على عنصر المحراب، كعلامة لاتجاه القبلة أثناء الدعاء، كما يوحي وجوده إلى أن القاعة كانت مصلى. تميز المدفن أيضا بوجود قاعة ملحقة تُفتح على قاعة المقام اتخذت شكل إيوان، وهذه ميزة تختص بها بعض الأضرحة في الفترة العثمانية مثل ضريح سيدي بوعبد الله بمنطقة غليزان.

إن هذا الصرح الأثري لَيشهد على أصالة الفن المعماري الجزائري الذي دخلت عليه تأثيرات وافدة في الفترة العثمانية، جعلت منه نموذجا مميزا لطراز المدافن والمقامات في الجزائر.

5- توثيق المراجع:

قائمة المراجع العربية:

. إسماعيل الحداد محمد حمزة، 1413ه/1993م، القباب في العمارة المصرية الإسلامية القبة المدفن نشأتها وتطورها حتى نهاية العصر المملوكي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية.

.بن بلة خيرة، 2007 ـ 2008م، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر 02، معهد الآثار، تخصص الآثار الإسلامية.

.بن سويسي محمد، د ت، العمارة الإسلامية في تمنطيط، الجزائر، مقامات للنشر والتوزيع.

.رزق محمد عاصم، 2000م، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مطبعة مدبولي.

. شافعي فريد، 1994م، العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة (21 ـ 358هـ/ 639 ـ 969م)، المجلد 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

. عقاب محمد الطيب، د ت، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، الجزائر، دار الحكمة.

. معزوز عبد الحق، 2014م، العمارة التقليدية بمدينة تندوف، ط1، منشورات بلادنا.

. مؤنس حسين، 1401هـ/ 1981م، المساجد، الكويت، عالم المعرفة.

. وزيري يحي، 1999م، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، الكتاب الأول والثاني، ط1، القاهرة، مكتبة مدبولي.

قائمة المراجع الأجنبية:

- Guin (L), 1873, « note sur la famille des robrini de cherchel », Revue Africaine, N° 17, PP de 444 à 472.

- Philibert (M), 1973, Cherchel Miscellanies, Iol Caesaeae Cherchel, Etude Toponymique, Alger, Comité du Vieil Alger.

- Trumelet (C), 1892, L'Algérie Légendaire en Pèlerinage Ça et Là aux Tombeaux des Principaux Thaumaturges de L'islam (Tell Et Sahra), Alger, Librairie Adolphe Jourdan, Paris Augustin Challamel, Editeur.